سلسلة قصص قصيرة (8)

دليلُ جريمتِكَ في يدِكَ

جمال الجزيري

حمارتك العرجا للنشر الإلكتروني

طبعة أولى

مايو 2015

سلسلة قصص قصيرة (8)

سلسلة تصدر عن حمارتك العرجا للنشر الإلكتروني

المؤلف: جمال الجزيري

العنوان: دليلُ جريمتِكَ في يدِكَ

التصنيف: قصص قصيرة [فن السرد، أدب عربي معاصر]

الطبعة الأولى: مايو 2015

تصميم الغلاف: المبدع محمود الرجبي

الناشر: حمارتك العرجا للنشر الإلكتروني

دار نشر إلكترونية مجانية لا تهدف للربح

للمراسلة لنشر أعمالكم في السلاسل المختلفة التي تصدرها حمارتك العرجا، على إيميل الدار باسم الدكتور جمال الجزيري:

hemartak@gmail.com

إشارة

كتبتْ قصص هذه المجموعة في تسعينات القرن العشرين

إهداء نصي

إلى :

....

....

....

أشخاص قالوا كلمتهم ورحلوا أو رُحِّلوا إلى أماكن حميمة داخل وعى الوطن أو إلى... حاربوا، ومازالوا، الأساطير المتفشية في الوعي الموبوء بعصارات الأيام العجوز وهى ترخي أسدالها على عقول حجرية صماء؛ ربما أزالوا جزءاً من الأساطير وقد تكون الأساطير قضت على بعضهم، لكنهم بيننا يمرحون في أرجاء الصفحات ويغازلون حروف كتابة بكر تحاول أن تخرج من تحت نير الأساطير وتضاجع معشوقها النوراني الذي يرتسم داخل الضمير الإنساني.

غلاف خارجي

مدخل أول:

مازال يبتسم، يسأل عن أشياء لم أدركها، يقابل علامات غير موجودة، ويصافح حروف كتابة غير ممزقة. يسبب في وجوه لا أراها ويلعن مواثيق كانت يوما ما.

مدخل ثان

جرس الباب يدق، يخرج يغمغم بأشياء لا أفهمها..... يأتي مصطحباً معه ورقة ما، يمدها لي، قائلا:

- هل تفهم ذلك؟

أنظر له بغباء ولا أجيب... يستطيل تجاوبنا فتطفح منا الآلام.

ها هو يكتب الآن قصة وفي عينيه علامات توقف رهيب، يحتسى الورق ببطء ويطول الصمت الغائم. ينتبه إلى صوت المسجل بجانبه فيخرسه ويعود وعيه إلى حبره. يبصر النار، يبتسم، ينهض، يحرق الورق ويسترخي.

يترك صمته وحراكه للعنان يفعلان به ما يريدان. لا يستنهض التقطيبة التي علت وجهه، فقط يعبث بالقلم بين يديه. لا يمد يده إلى علبة السجائر بغية تكدير النفس، يمتلئ عقله بضجيج الكلمات فيقذف بها إلى فؤاده ويخرج...

تنتابه شهوة عارمة في الضجيج، فيلقى بنفسه في أحضان الزحام. يمتطى الموجات، فتتسارع دقاته مع وقع الأقدام. تراوده رغبة في البوح فيجلس بجانب عمود كهربائي ويخرج ورقته ويشرُد. لا تسحبه أياد إلى بحور الظلام هذه المرة. فقط تتخاطف انتباهه حركات الناس وأفعالهم.

يتذكر أنه لم يسمع المقطوعة الموسيقية من فترة احتار في تحديدها، فيرجع ويهرول إلى غرفته يمتطى صهوة الشوق المواتي، يحمد في نفسه تمزقها وانصهارها، تشتتها والتئامها. يدخل، ينداح في زوايا النغمات، يهيم في التكايا والمقامات....... عندما يغيب عنه الشعور بالوحدة، يخرج القلم ويبدأ في الكتابة.

1996

دوائــــر

لقطة أولى:

نفير العربات يرهبه. يخشى أن تكون بهذي العربات عيونٌ وأنوفٌ وأرجُلٌ تطيح به في ركن مظلم من غرفة ضيقة، وهو ذاهب ليشتري طلبات بيته وورقا لكتابه. يسير في شارع جانبي كي لا يطيّر صوت التكّات أوراقه أو يتناثر طعامُ أهلِه تحت أقدام لا تعرف معناه.

لقطة ثانية :

جالس على المقهى بعد انتهاء عمله، يحتسى الشاي بعد الغداء ويضبط أشياء كثيرة بأنفاس الشيشة. يتوحَّد نفير العربات وصوت التكات ويتجمَّعان في أسطورة من أساطير زمن ما. وبدون أن تبحث العيون عن شيء ما، أو تُدَسّ الأنوف في أشياء، تسحبه الأيادي وتسحب كل من يجلس معه كأن الجلوس بالمقهى صار شُبهةً يعاقِبُ عليها قانونٌ نائمٌ....

يسمع نفير العربة المتواصل، وهى تسير خارجه، لا يدرى إلى أين. يحس بأنه نقطة غير مرئية داخل تجويف العربة الضخم.

لقطة ثالثة:

تتضخم الأسطورة، تمتص عقول الناس، تتحسس داخل ملابسهم وأجسادهم وعقولهم وأرواحهم، وتتسرب حتى أقدامهم، ترفع البلاط وتفتِّش تحته. تمتصُّ الأسطورة فرحةَ الأمِّ بكتاب ابنها وتذيبه. تذيبهما....

تشترى الأمُّ كل ما تستطيع أن تشتريه من نسخ الكتاب المتاحة قبل أن يُصَادَر وتملأ بها أركان البيت. مزهوة بابنها، تدعو كل زائر لقراءتها.

لقطة رابعة :

حاملا قلبه بين دفَّتَي الكتاب يسير. تتراقص الأمنيات فى عينيه. ينعطف إلى الشارع الذي يسير إلى بيته. تتربص به العيون من مقدمة التجويف. من داخل الفتحات في

التجويف المتحرك يرى كل شيء خارجه يختلط ببعضه. تتوقف العجلات وتقذف به داخل تجويف أسمنتي:

- ماذا فعلتُ؟!!

- فعلتَ كل شيء، ودليل جريمتك في يدك.

تشير الأيدي إلى كلمات طفلِه الصغير بين يديه. تتبعثر الحروف داخله، لا يستطيع أن يجمّعها، يتخَلَّق داخل كل خليَّة من جسده سؤالٌ. تقذفه الأيدي ليصطدم بالجدران الأسمنتية، ويندفع الدم قاتلاً معه الأسئلة.

لقطة خامسة:

طبقة من الظلام أمام عينيه. تسحبه الأيدي من التجويف الأسمنتي من خيوط غليظة في يديه، تقذفه في تجويف آخر حديدي. تتحرك العجلات. من بين الخيوط الدقيقة في فوهة التجويف الحديدي، يأتي إليه نفير عربات مختلطٌ بضجيج متحرك. يتشبَّع زفيره بنبرة الاستهزاء.

تعاوده بشدة "تلك الرائحة" المخضَّبة بها جدران التجاويف. كل صوت قادم إليه – حتى صوته – يصل إليه نفيرُ عرباتٍ متصاعدٌ.

20-12 ديسمبر 1994

هبوط بالجملة

ولمَّا كان القطار لا يريد أن يتوقَّفَ في المحطات، ولمَّا كان هو يريد أن يصل إلى محطةٍ ما، وقف حائراً لا يعرف ماذا يفعل: يود أن يصل إلى محطته، لكن الخصائص المميزة لمحطة هي تلك التي تميز الأخرى....

توقف القطار أكثر من مرة، وكثيراً ما مزَّق أناساً بين ضلفته والإطار. دوامة لا متناهية للخروج، والتملص مستحيل. سمع صوتاً يقول:

- ليس لك الحق في الخروج.

قال الباب مزمجراً:

- ما شأني أنا بالداخل والخارج؟ الأيادي تصفعني باستمرار وأنا صامت. لا. لن أنفتح لأحد.

كان الباب ينفتح مُكرَهًا لطالبي الدخول. وظلَّ صاحبُنا متوزِّعَ الخطواتِ. ضريرٌ قال كلمات لم يفهمها. سمع صريرَ

سريرٍ لا يدري منبعه. هام داخله في درب لا يعرف أين ينتهي أو إلى أين يصبّ أو حتى يسير...

توقف القطار فجأة. فُتِحَت الأبوابُ على مصاريعها. انفتحت الأبوابُ الموصلة بين العربات. كَبَّر الركَّابُ خارجين. هالتهم الكثبانُ. أول ما فكروا في فعله هو الهتاف بموت السائق. نظر بعضهم إلى القضبان، وجدوها متآكلة. اندفعوا إلى عربة القيادة... السائق عجوز، ضرير، ملابسه مهلهلة – هكذا رآها أحدهم – شعره أشعث متسخ تماماً. في يده "جزرة" متسخة يقضمها بشهوانية، وفى اليد الأخرى علبة من حبوب المقويات، نادوه، لم يردّْ، قبل أن ينادوا عليه مرة أخرى هبطوا جميعًا إلى...

1995

العالم السفلي

بعيون ثاقبة متفحصة، تتلقف أيدي الصغار محتويات البرميل المنتصب عند حافة الشارع. ينهمكون في نثرها بعرض ذلك الشارع وطوله. يمعنون في تقليبها علي الرصيف وفرزها.

صبيَّان يتشاجران علي جزرة واحدة.

- يا ابن الكلب، أنا وجدتها أولا، أتريد أن تأخذها مني؟

فيرد عليه فورا:

- يا ابن الـ...أنا يدي أطول وأمسكتُ بها من قعر البرميل. ...

يمسكان بها وكل منهما يجذبها ويصرٌّ علي أن الجزرة جزرته. يُخرج الصبي الأكبر فيهما موسا من جيبه، فيسيل الدمُ من الصبي الأصغر الذي يسبُّ الآخر، ويبكي.

يجري صبي ثالث ويخطف الجزرة، متواريا في أحد الأركان؛ يلتهمها بسرعة ويخرج المطواة من جيبه. ينزل صبي رابع برأسه في البرميل ورجلاه معلقتان في الهواء. عندما يلمحه الصبي الثالث فوق البرميل، يشحذ إصبعه. يتماسك الصبي حاملا ثقله على يديه كي لا يقع في البرميل. يخرج بأحد الأكياس، وما أن تثبت قدماه على الأرض حتى يفرَّ إلى أحد الأركان. ينتقي مما بالكيس الأسود. يستطعم بعض الأشياء وعيناه تلمعان بالسرور الحَذِرِ. يتهلَّلُ صبي خامس، فلقد وجد بعض الأرغفة الناشفة.

الصبي الثالث يستمتع بضوء الشمس المنعكس على مطواته التي يلوح بها عاليا ثم يرفع جلبابه متباهيا، ويتبول في البرميل... عندما يأتي عامل النظافة، يكون كل ما في البرميل قد تبعثر على الرصيف. يزعق:

- يا أولاد الـ... ملعون أبوكم...

فينطلقون ويتوارون كلهم في بئر سلم قريب...

1994

من على السلم

ألقى السلام. لم يجبه أحد. قال:

- مساء الخير.

لم تُسمع إجابة. هاله ذلك المنغرس في السلم مستغرقاً في الكتابة، متشبثاً بالقلم في هستيرية واضحة الحروف. بانت على وجهه علامات امتعاض، دهشة، شفقة.. تحيّن فرصة للصعود وبدون إرادة منه - وربما بإرادة - دهس رِجل الجالس. مازال الجالس يكتب ويغامر بالحروف. أحس بالعطش الشديد فازدرد دواة الحبر بجانبه وخط سطرين أتم بهما مقطعاً من القصة المولودة بين يدي قلمه...

صرخ عندما وضع نقطة وتقلَّب على السلم. ولتأوهاته هبّ جميع السكان، وجدوا الورقةَ بيدٍ، والقلم بيدٍ وما بينهما جسداً يتلوى ويصرخ. قال قائل منهم:

- نوبة صرع.

قال آخر:

- حُمَّى البحر المتوسط.

أضاف ثالث:

- عفريته طلع.

منهم من قرأ القرآن. منهم من رتل الترانيم. وطائفة ثالثة لم تدرِ ماذا تفعل أو بماذا تفسر. رويداً، بدأ يهدأ ....

نهض من على ردهة السلم. جلس على الدرجة التي كان جالساً عليها وأمسك بالقلم، أخرج ورقة أخرى من جيبه وانهمك في الكتابة، فقهقه كل الناس وعادوا من حيث أتوا، منهم من مازال يقهقه، منهم من بدأ يزرف الدمع، أحدهم فكر أن يتصل بطبيب "نساء وولادة"...

أنهى هو القصة، فتنهد ودخل غرفته الواسعة.. ألقى السلام على زوجته. لم ترد ـ وجدها تكتب، فوقف يتأملها مبتسماً وهو يغلق باب الغرفة كي لا يتلصص عليه الجيران.

1996

أسطورة

الولد يعاند تلك الأسطورة القديمة ويحاول أن يخرج من دوائرها. لكن العيون تنظر إليه باستهتار وتكتُّل:

- كيف ينكر قداسة الجذور العتيقة؟

وعندما باءت محاولاتُه بالفشل، واصل طريقه. لم يسانده أحد. كل أهله قاطعوه:

- يحاول أن يحدث انقطاعاً معرفياً في جذور الأساطير والأعراف.

عندما وجد نفسه وحيداً يعانى الأسطرة والتجهيل والمضايقة، ترك المكان ورحل إلى مكان لا توجد فيه جذور.

كانت تأتيه الأنباء عن بلدته والأخبار المتناقلة هناك: صنعوا منه أسطورة تتناقلها الألسنة في كل مكان؛ أخبار مزيفة وما صدق منها فقط هو أنه ارتحل.

نظر حوله في المكان الجديد: ينظرون إليه مخلِّصاً جديدا؛ يذكرون اسمه عند كل المصاعب. حاول أن يُفِّهمهم

ويقول لهم حقيقته، لكن الأسماع لم تنصت إليه والعيون لم تنظر إليه إلا بالتقديس. أمسك السكين وغرسه في قلبه، فكتبوا بدمائه أسطورة جديدة ووضعوا اسمه عنوانا لكتاب أساطيرهم الجديد.

1995

مقاطعة

اصطفى ركنا قصيا وظل يدوّن بعض أبيات أو سطور كان يرددها طيلة الطريق كي تكتمل. هز بطرف القلم فتساقطت حروفٌ طيعة وكلمات لم تُبْتَسَرْ أو تفقد قدرتها على التواصل الذكي مع جاراتها، تودُّهم ويودُّونها وأحيانا تجفوهم ويجفونها.

لم يكن يصدِّق أنه سيكتب مرة أخرى، فطوال شهور عديدة لم تتولد لديه رغبة ولو فاترة في الكتابة، ظن خلالها أن غيابه والكتابة عن بعضهما البعض لابد وسيؤدي في النهاية إلى الجفاء والانقطاع:

- البعيد عن العين.

حاول أن يجد أسبابا لذلك. لكنه لم يقنع بتبريراته. ومع ذلك لم يشجبها: قيدها في دفتر الأحزان وكتب عليها:

- أحد عوامل التوقف.

وبالرغم من أن البداية في الطريق كانت ضعيفة فإنه تمسك بها وظل يرددها. قال:

- مجرد تمرين حتى وإن لم تلد شيئا يرضيني.

انغمس في الكتابة أو هي التي انغمست فيه. كل ما أدركه أنها كانت مشتاقة إليه وها هي الآن تلقاه لقاء العاشقين، ذاب في دفئها وذابت في حنانه، ولم يفق إلا على صوت السائق:

- يا أستاذ، نريد أن نكمل السفر.

وكأنها أنثى خجلي، انصرفت وانحسرت عن وعيه، فنهض ضَجِرًا وركب في السيارة.

1997

وجود

مولود أنت بين ظلال الألوان. تخاف علي هذا الجزء الغالي من قلبك المفطوم أن يقطفه الزمن ويلتهمه في أحشائه التي ترسم جذور خيوط عنكبوت في قلب الحياة، تريد أن ترسم تلك الصخرة من خطوط من دمك، تلوِّنها بعيونك وتواريها بين هذى الرموش، تحاول أن ترسم لونك بيديك.

"يا عاشق القمم البعيدة

اصعد إلي هذا الصراط

فالحب آجر القصيدة

ودم المغنين الملاط"[1].

تتعثر! تخطئ وينكسر الخيط! أغضبت؟! لا، لا تتسرع، وجِّه غضبك، ألا تعرف كيف توجهه؟ تأمّل الخيوط جيداً. داعب الفرشاة. راجع شريط حياتك وحياتهم وموتهم

[1] حسن طلب : "الزبرجدة الأساس" زمان الزبرجد، كتاب الغد 14 (1989) ص: 51-52

ومواتهم. تأمله للمرة العاشرة بعد الألف واحكم، احك، ارسم، افعل ما تشاء. أتعلق نفسك علي الحائط وتقول:

"يا أنا

يا مفتاح الصبر

يا معلقاً علي الحائط"2؟

أغمض عينيك. ما لم تبصره قادم. هذه النبضة المرتجفة هي بداية الحقيقة، هذه الرعشة في اليدين هي التي ستعطى للوحة طزاجتها ونقاءها المُرَّ. هذه النظرة الحائرة ستمنح بُعْدًا جديدا.

حاول، ارتعش كما تشاء، لا تكبت هذه الرجفة، هنا منتهى السكون، لا تستمع إلي أصواتهم، لا تنجذب لغوايتهم، لا تترنم ترانيمهم، لا تردد أناشيدهم، لا تقرأ كلماتهم، لا تستخدم حروفهم، لا تكن لهم من التابعين...

---

2 عصام أبو زيد، ضلوع ناقصة. هيئة قصور الثقافة (1996) ص: 21.

تكّاتُ أصواتِ النار في الخارج تلهب مشاعرك، تصهر أفكارك، تسكبها فياضة في أنهار ترقد في صحراء قديمة، انصهر، الانصهار بداية العمران، لا تخف من ذلك الخوف الوليد، لا ترتعب، لا تقف واجمًا، تقدم، تبصَّرْ وافعل ما تشاء...

المياه التي تدفقتْ تحت قدميك ستروِيك، أتحسبها دموعًا، ستنبت، مهما كان الإنبات بطيئا فإنه منطلق الخضرة واليَنعان، سافر في تلافيف اللوحة، أنر طياتها، ظللْ ما تريد، أنت المسئول...

لماذا توقفتَ؟ أكمل! لا تنتظر شخصا آخر يكملها لك، فهي وليدتك، تتغذى من دمك وعندما تختلط الدماء ربما يحل الموت، لا تخف من اختلاط الأصوات، تداخلْ معها. ألا تسمع تكات الرصاص وصرخات الموت، لا تكتب موتك بيديك، اصرخ، إنك مازلت حيا، انطلق...

(انطلقتْ يدي بنشاط زائد. الرغبة في الإكمال تلهب الفرشاة فتخط ما لم تستطعه من قبل في هستيرية محمومة

متعمقة. تنهدتُ. ابتسمتُ. وسقطّتُ. ولكن بعد أن أخرجْتَها للوجود...)

1996

اغضبْ

قالت كلمتها وانصرفت. لم تحاول أن تبحث عن جذور تلك المقولة العتيقة. انصرافها يؤكد أنها لم تفهم الموقف أو تستوعب ما تقوله ومدى مطابقته للحالة أو سياقه. كانت تتعثر في خطواتها: ربما من التردد، القلق، الخوف، الحيرة، وربما لأنها لم تستطع أن تعود إلى انسجامها القديم... حاولت أن تنظر.......... إلى .... الوراء لتستطلع... مدى... انفعالاته وانعكاس كلمتها على ألواح قلبه، وجدته ينظر إليها بنفس العمق والهدوء و نظرة الإعجاب لم يغيره ما قالته. سقطت دمعة لاإرادية منها، وبدون تحكم استدارت إليه وخطت خطوتين. لكنها سرعان ما استعادت كبرياءها – الغبي أحياناً – واستدارت للأمام، سائرة إلى حيث لا تدري................

ذهبت إلى والدتها تقص لها ما حدث – وربما ما لم يحدث – تضيف له تصوراتها عن الموقف وفهمها له.

وبالرغم من أن إحساسها لا يثق في رأى والدتها، فإنها أخذت تروى لها. مع ذلك فإن داخلها يقول لها – مجرد تخمين:

- لا تتكلمي، ستتخلق فجوات، ستنشأ أسوار.

وربما لن يكون هناك انطلاق و"عرفة"[3] ربما لن يجد "الكراسة" وسط تلك المرتفعات المتضخمة من أكوام الزبالة، والزبّال ينظر له باستهزاء وبلامبالاة متعمدة. ربما لأن والدها مسافر وحتّما ترسل له ويرد عليها، ستكون دخلت في حالة من المحتمل أن تكون في الاتجاه الآخر...

غاب عنها... اتصاله... سؤاله... هدوؤه... ونظرات الحب الكبير، استرجعته، واسترجعت ما دار، ما قاله، وما كان. لم يثبت في قلبها إلا نظرت الحب في عينيه، استرخاء روحه والحنان الأبوي ساعة تركها له. تذكرت المسيح وحلت في جسدها الروح، فدلفت في المسجل شريط "اغضبْ" لأصالة نصري، وبكت. ذرفت الدمع واسترخت. نامت في أحضان دموعها....

[3] عرفة البطل الأخير في رواية نجيب محفوظ ***أولاد حارتنا***.

وفى المنام رأت نفسها طفلة صغيرة تتهادى بين يدي حبيبها، وهو يداعبها، يلاعبها ويلاطفها ... أو هي التي تبدأ أو تبادر....

أفاقت على أصالة ترسل كلماتها الأخيرة... رأته أمامها، نظرت إليه بقلب غير إقليمي وهدوء بديع، فابتسمت للرعشة الوليدة في قلبها، والنشوة المتغلغلة حناياها، ارتدت ملابسها وخرجت...إليه.

1997

همْس

نزل من الأتوبيس، قبل مقر عمله بمسافات، لم يستطع أن يتحمل كثرة المطبات، تلاطم الأجساد، الاحتكاك المتعمد، التحرش الغريزي، عيون حسناوات، دخان السجائر، والدخان الخانق المنبعث من مؤخرة الأتوبيس إلى الداخل...

أحس بأن الأرض تدور، والشوارع مظلمة، مشى حثيثا، يثقله سهده وأرقه، لم يشعر باصطدام الأجساد به، لم يسمع نفير العربات، ضجيج الباعة، الأغاني الزاعقة التي تنفجر هنا وهناك، لم يشعر بما حوله إلا وهو يجلس على مكتبه...

طلب كوب الشاي المعتاد، ارتشفه بطيئا... أخرج قلمه، انخرط في العمل، لم يشعر بالنكات تنطلق من أفواه زملائه، لم يسمع الضحكات تجلجل في حناجر زميلاته، لم يحس بثرثرتهم حول ما حدث لكل منهم بعدما ترك المكتب يوم أمس...

فرغ مما في يده، أشرفت الساعة على الواحدة، رفع رأسه، أنزل نظارته، مرر إبهام وسبابة يده اليمنى بقوة على جذور أنفه، زفر زفرة عالية، نظر إليه زميله الذي كان يهم بالانصراف، قائلا:

- تبدو مرهقا!

- لم أنم بالأمس.

- يبدو أنك مشغول بشيء؟

- يا سيدي الاستقرار يبدأ بعد الموت.

- فأل الله ولا فألك يا أخي.

توضأ، وبينما كان يجفف وجهه شدَّه شكله في المرآة، أفزعته بوادر التجاعيد الخفيفة على جبهته والرموش التي تكاد تنطبق على بعضها البعض، ولكنها انفتحت فجأة، سحبت دمَه الشعيراتُ البيضاء التي تحاول أن تجد لها مكانا في رأسه، سخر من كلام زميله، وجده يسخر منه في المرآة، سخر من نفسه ومن كل شيء، وتمتم للصورة في المرآة:

- يا سيدي، أنا رجل! وما أقساه من وصف تتصف به! ما أنا بمتكبر أو عزوف! لكنني أخشى إن احتككت بهن أتعلق بواحدة لا أستطيع أن أتزوجها، فألعن ساعتها كل شيء... لكن الحذر لا ينجي من القدر... لست زاهدا في الدنيا كما ترى، الزهد تفرضه الظروف، وأنا أعشق النساء، بل كل البشر.... تقول "بيدك الحل"؟! لا، ليس بيدي الحل يا سيدي، لا أحب الإمساك بالخيوط المنحنية والملتوية والمنعرجة والمتكسرة......

ابتلع عجزه، هضم مرارته، رفع الكتاب المفتوح من على السرير ونام...

****

استيقظ، مازال الإرهاق يكتنفه، في عينيه ألم واحمرار، في جسده فتور، في قلبه مرارة وانكسار، استنشق الهواء، سعل سعالا شديدا، شرب كوب ماء، ارتدى ملابسه وخرج...

سار بطيئا إلى البحر، يحتمي بشاطئه دائما عندما يحس بالتثاقل، يتقلب وسط الأشواك والكوابيس والأشباح التي تجثم على صدره فلا يستطيع أن يتكلم أو يتحرك أو حتى يتمتم ببضع آيات تطردها...

جلس على صخرة تصدمها الأمواج بعنف فتتكسر تاركة رزاز الماء يسقط عليه والهواء المحمل برائحة الأسماك المهاجرة ينشي رئتيه. تطير الفتاة التي تعرفت عليه في المسرح القومي عندما كانت جالسة بجواره تحدثه عن المسرحية المعروضة وقابلته بعد ذلك مرارا، تحط بجواره، يهيمان مع الأمواج والامتداد اللانهائي للمياه والسفن التي تتراءى عصافير صغيرة في قلب البحر، يمتد بينهما الكلام...

تندفع موجة عالية، تتحطم على الصخرة، تبلل حذاءه، ترتفع مياهها، تبلل وجهه، ينقطع دفق الكلمات والهمسات والأحلام، يختفي طيفها، يتلاشى إشراقه...

تتلاشى الشمس رويدا رويدا في البحر، يخاف أن تبتلعها، تطفئها، فتحيلها قطعة فحم سوداء ولا يستطيع أن يحتمي بالغروب بعد ذلك أبدا...

20 سبتمبر 1994

خبطات

بطيئاً يتكاثف البشر. الطابور طويل بطول عمر الأرض والألم المتراكم في قلب آدم لعصيانه ربه. مثل كل الناس ممسك بشهادة ميلاده وبحركة نهر عجوز مشلول يسير الطابور.

الضجر الضاجّ في قلبه وانتظاره الرهيب لدوره يجعلانه يخرج مذكرة صغيرة من جيبه، يقلبها، فتمر كل الأيام والشهور أمامه، يحاول بقلمه، الذي يحتفظ به دائما في جيبه، أن يراقص بعض الحروف المليئة بالحيوية وحركة التاريخ أو سكونه...

كل "العيون" تتطلع إليه من خارج الطابور، يـد خفيفة تتسلل، خاطفة القلم منه. خبطات في باطن الإسفلت تحته يحسها قوية... عندما يُدخل المذكرة في جيبه، يشعر بحركتها الدائمة.

تزداد حركة الطابور... أمامه تظهر الفتحة بأسياخها المتعامدة، ويبدو من خلفها أو من أمامها، فلا يمكن تحديد

الاتجاهات، عينان دقيقتان وأنف طويل كأنوف بعض الأشباح في مسلسلات الأطفال الكرتونية. يمد شهادة ميلاده، مثل كل الناس. تنظر إليه العين بتمعن:

- الختم غير واضح. اتركها وتعال الشهر القادم.. ستكون مختومة وتستلم حصتك....

(تطاولت الأنف وتشممت لساني فأسقطت مادة كريهة كادت تجعل عضلاته تتآكل.. لماذا تتعالى الخبطات في باطن الإسفلت؟... كيف سأعود ويداي مملوءتان بالأصفار الضخمة؟.. كيف سأقابل أمي؟! ستتحسر علي وفاة أبي. ستخرج آهـــــــــة تمزّق قلبي وتجمّد حزني جبالاً شاهقة تكتم زفراتي الحارة وتجثم علي قلبي المذبوح. لماذا تُلحِّين عليّ الآن يا حروفي المدللة؟ هل أنا فارغ الآن لتشكيلك؟.. لماذا هذه الخبطات المتواصلة للإسفلت؟!!!.. ربما كان الإسفلت يصرخ صراخاً مكتوماً، متألماً من الأثقال التي تسير فوقه، أو ربما كانت أحشاؤه تتقطع من الأقدام التي تُرْفَع وترفس بطنه غير منتبهة لما أمامها أو تحتها.. من

الممكن أن يكون في حالة مخاض، فيُخبِّط من شدة الألم .. ما علينا. يجب أن أشترى قلماً.. الأفكار مازالت تدور في رأسي وتتقلب، تريد أن تتلاقى مع الحبر.. ها هو جدار.. أتكئ عليه لكي أكتبها.. أين المذكرة؟ كيف اختفت؟ .. الخبطات ورائي في الحائط؟!.. لا يوجد أحد؟! من أين تأتى إذن؟! .. لا توجد غير ورقة النتيجة الإجمالية للعام المنصرم.. لا يهم.. أكتب عليها.....)

وهو مستغرق في الكتابة تصرخ الخبطات خلف ظهره، يلتفت، فيجد يداً تتلقفه وتسحبه إلي بحور من الظلام.

31 ديسمبر 1994

كهربة

مسافات تطول وتُسْحِق، تبحر في فضاء غير مرئي الحدود، تُبعد الأنوارُ المضيئة دروبَ الحياة المتشعبة، تطعن قلبي بسكين مكهربة، أنظر بجحوظ، لا أستطيع أن أميز الأشياء التي أعرفها، أحس بطنين في أذني، يقذفني في بحار متداخلة، يضرب الموجُ الموجَ وأسقط إلى القاع حيث العفن والطين النتن والأنياب التي لا ترى أو تميِّز، أضع أصابعي في أذني، تقضمها الأنياب فيسيل الدم على بدني حارا، يسقط على الأرض، يرسم خريطة حمراء وسط ظلام الكون الشاسع، تهرع أسماك القرش إلى دمي، عربة تتراقص على نغمات أغنية غريبة، تُوقف على الخريطة، أحاول أن أصرخ:

- هذا دمي، لماذا تخفيه؟

يسبُّني:

- ألا ترى؟ أأنت مجنون أم نائم؟!!

يد تخرج من العربة، تبعدني مسافات سحيقة، تسير بي في دهاليز مترامية الخطوات، منمحية العلامات، نائمة في رحم الظلام الذي يضاجع الليل ببيت دعارة في منطقة حجر صحي...

كذب من قال "المسافات من عينيك تبدأ"، المسافات بعيدا عن عينيكِ تبدأ، أين نظراتكِ الحائرة القلقة التي تتوحد مع نظراتي فتضيء لي الدهاليز؟ الظلام حبال من مسد، تخنق، تحرق، تشرِّد، تنفي، تصير حياتٍ تسعى، تلقف كل حبات النور المبعثرة، تنفث سمها في القلوب الندية، تتفرعن، تفرد أجنحتها السحرية، تصفعني بها، تقذف بي مسافات في الاتجاهات النائمة في حضن السكون...

تسير بي الدهاليز، أسمع أصوات، يتلألأ بريق في قلبي، يذيب بعض طيات الظلام أمامي، أُسرع الخطى لمجالسة تلك الأصوات والاستئناس بها، صوت سحيق هائل يوقظني:

- ما الذي جاء بك إلى هنا؟

- ألقت بي اليد.

- ممنوع السير هنا.

- قذفت بي الحيات.

- يُقَدَّم للمحاكمة فورا.

- ماذا فعلتُ؟

- أنت مجرم ينتهك الحرمات...

كذب من قال إن "المسافات من عينيك تبدأ"، المسافات بعيدا عن عينيك تبدأ، أين كلماتك وأحلامك وطموحاتك هنا؟ تبعث فيّ القوة لأحطم ذلك الصوت السحيق، فيموت ظلام الدهاليز، وتنفتح القلوب على بعضها حيث يكبر النور ويثمر الضياء...

يُشد صليب خشبي جديد على الحائط، تدق المسامير في يديه ورجليه وكبده، يشير بعينيه الجاحظتين إلى الدم المتساقط على الأرض، قائلا:

- هذا دمي، هذا دمي، هذا أنا، إنه أنا، إنه هي، نحن، كلنا...

تُدَّقُ المسامير في لسانه وعينيه وقلبه، يتساقط دم عينيه على الطيور التي تأكل في رؤوسهم. يحاول أن يرسم ابتسامة على وجهه. تتبول الطيور على أسياخ النافذة. يحس برائحة الجردل الذي يتبولون فيه بالداخل قوية في أنفه. يصعد على ظهر أحد زملائه. ينظر من النافذة. تندهه المسافات الممتدة في عمق الصحراء. يضحك ساخرا عندما ينسحب زميله من تحته فجأة فيسقط إلى الرائحة الزنخة. يفتح صفحة من صفحات ذهنه ويبدأ في تدوين بعض الجمل. يكرر الجمل على زملائه كي لا تندثر من صفحة المخ ساعة كهربته.

2 أكتوبر 1995

منفى

فى المنفى كان صاحبنا شريدا وحيدا يعانى الغربة والأرق. ومنفاه لم يكن خارج الوطن، بل كان فى سجن بعيد فى أعماق الصحراء يتجرع فيه مرارة التصحر والقفر. ولما حاول أن يتصل بى وأخبرنى أنه يموت بعد أن طعنه أحد الموتورين، قطعوا عليه الأسلاك ومثلوا بجسده: قطعوه قطعا جد صغيرة وبعثروها فى أرجاء البلدان.

استلهم أحد أصدقائنا وأصدقائه – وهوعاشق للتاريخ الفرعونى ومتخصص فيه - روح إيزيس الخالدة، وكان قد سبقنا إلى ذلك، وأخذ يجوب البلدان يجمع أشتات صاحبنا. كانت الطيور تصاحبه فى رحلة الجمع هذه وكانت تدله على أماكن كثيرة...

وبعد أن جمع الشتات أعاد ترميمها خلسة، أعددنا له ضريحا عظيما يليق به وبأمثاله، بالطبع كان هذا المكان سريا غير معروف إلا لأصدقائه وقرائه وكانوا يزورونه جميعا، بل ويلتقون عند قبره: يعقدون الندوات الجلسات

والمناقشات ... بعضهم كان يكتب شاهدا على قبره فى لوحة جميلة تدل على سيمفونية التلقى والإبداع ....

1997

التئام

فمهما كان مازال يصارع، تأخذه الأمنيات إلى ذلك الشاطئ البعيد في الركن القصي والخضرة الوليدة خلفه ترسم لوحة عبقرية بأيدٍ عنيدة، مياه البحر الحرة تجوب البلدان وتأتي محملة بخلاصة التاريخ والبناء. استطاع أن يكوّن دالاً حراً له، نجح في أن يتخلص من الارتباط بأي مدلول يحصره داخل دائرة شريرة أو يقيّض أركانه الفتية، أو يضيّق حدود قلبه الطفل ويغمره بأمواج ظلامية جبارة....

قالت تلك العيون القاسية:

- ليس لك الحق في أن يكون لك مدلول.

وقال وليدها المدلول:

- أنا أريد أن أكون لك المدلول، أحس بدلالتك، لكن أمي لا تشاء، وأنا لا أستطيع إلا أن أخضع لمشيئتها . فلقد قالت لي إنها أبصرت ما لم أبصر به، ولكنك لست رسولاً وليس لك آثار.

قال:

- فلتذهب إلى الجحيم تلك المشيئة، ذلك الخضوع، الخنوع، وتلك العبثية اللامبالية.

انصرف إلى داخله وقلمه، عبر الشط على حبره بعيداً عن الوهم الكاذب، الأحلام الساذجة، وتلك الادعاءات الأرستقراطية المتعفنة.

صرخ القلم:

- ابتعد فمكانك ليس هنا، مكانك هناك حيث اللاحدود، الانطلاق، التفتح، التوهج، وصهر الدوائر، هروِل بين تلك الفراغات وشكِّل منها لوحة تمثلك وتمثل ذويك...

انزوت تلك الإدعاءات والأوهام، وانجلى من تحتها الوعي واليقظة والإدراك. شيء يرجع له في الانزواء وإرادة تنبع من داخله في الإدراك.

انفجر المدلول. لعن المشيئة والخضوع والارتكان إلى كلام متقوض الأركان. حاولتْ أن تتصل بدالها وتكون معنى مجسداً يتحرك على الأرض. عبثاً تحاول أو تجادل أو تريد، فالدال انطلق بعيداً عن مدلوله عندما أدرك أنه متقوض الأركان يبحث عن عجل ذي خوار وبريق الذهب يتطاوس، وأن المعنى الذي كان يظنه فيه لم يكن إلا وهما من أوهامه هو نسجه في وقت كان خياله يسبح في وجه لوحة أصيلة، ارتدى قماشها ولكنه لم يبحث عن روحها أو خلفيتها، فأماميتها كانت سجَّانه.

سبح وسط البحار، الأشجار، الأقمار والنجوم، لكنه ظن أنه يبحث عن ذاته هنا، وما بحث عنها قط إلا عندما ترك الدائرة، فألقى نظرة أخيرة عليها وخرج على الإطار.

1997

مياه

أحاول تحريك يدي، تتصاعد المياه، تتطاوس فوق جسدي الهزيل، تثقل، تتوقف يدي، سأغرق، أبدأ في تحريك رجلي... أجرب رأسي، هي الوحيدة التي لم تتوقف...

تنفد حركاتي، أتساقط هاويا على أعماق المياه، أصرخ، أنهض، تفزع زوجتي:

- ألن تكف يا رجل عن هذه الأحلام المفزعة؟ ألا يكفيك نومنا بدون عشاء؟!!

تهدأ أنفاسي، أنهض، أترك السرير لأضيئ النور، يا إلهي!! ما هذه المياه المتدفقة في غرفتنا الوحيدة؟!! أرفع بنطالي، أخوض، أضيء المصباح، تتزايد المياه، أصرخ، يجف حلقي، أفتح حنفية حجرتي، لا توجد مياه، يزداد عطشي، لا توجد غير هذه المياه الطافحة في الغرفة، أمد يدي، أغترفها، آآآآه، لا أحتملها، جوفي يتعفن، أضع يدي على بطني، أفتح فمي...

لابد من إخراجها، أحاول، تخرج أمعائي، تتطاول أمام عينيّ، ينقعني منظرها في الفزع، أمد أصابعي، أمسكها، أدخلها، لا تريد أن تدخل، أستميت، أفقد توازني، أسقط، أحدث ارتطاما، تستيقظ زوجتي، تصرخ، أقوم، أنياب المياه تطول، أقفز على السرير، تقف زوجتي، تعلو المياه، يزداد صراخها، تجري فزعة إلى الباب، أستبقيها:

- لا مكان لنا غير غرفتنا، الشارع، العراء، سأُخْرِج المياه.
- سأغرق....

تضع يدها على الباب، ألقي بنفسي وراءها، سأستبقيها، سيحميها السرير، سأخرج المياه، أمسك بها، تصرخ في وجهي، أرجوها السكوت، لا أريد أن يعرف الناس أسرارنا، تصرخ عاليا، يجدف صوتها فوق المياه، يخرج من الغرفة، يدخل كل غرف البيت، أغلقُ الباب بإحكام، لن يخرج الصوت، تصرخ أكثر، تفتح الباب، تلعنني، وتلعن اليوم الذي رأتني فيه، يتماوج صوتها، يسيل في الأثير، يبلغ كل الآذان،

آلاف العيون تتلصص علينا، تحملق، تسترق السمع، يقفز قلبي من صدري، تدوسه أقدام العيون، تفركه، يتشقق، تنبثق منه دماء متفجرة، يظهر لونها واضحا وسط المياه، ملابسي تطير من على جسدي، ملابس زوجتي ليست عليها...

أشعر بلفحة الهواء، أحاول أن أمد يدي. تصطدم بالأجساد المتراصة حولي في العراء. أسمع سرينة الشرطة فوق الكوبري. أقبع كأنني الموت، واضعا الحجر على بطني كي أخرس ذلك الجوع الذي يمتد ما بين الشوارع وبطني.

1 مارس 1994

شبح في المرآة

النجوم الفوضوية تتثاءب، الشوارع تتململ في مضجعها من حركة الرواد، تعلن أنها ستنام، يبدءون في الانصراف تاركين الفراغ والبرد اللاسع في ليالي الشتاء... يصحو السلّم على وقع الأقدام فوقه، ينظر بعيون مجهدة...

يعود السلم لنومه العميق بعد أن تدخل الأقدام شقتها، يرتاب حامل الأقدام لرائحة العطور الزاعقة المحملة في طيات الهواء... إعراض زوجته عنه في الأسبوع الأخير وتمنُّعها يثقلان قلبه بأشياء. لون الدخان على المقهى وطعمه يذيب الثقل ويجعل القلب خفيفا منتشيا، والأيادي تتبادل اللعب، والأفواه تثرثر حتى الساعات الأخيرة من الليل...

ينادي زاعقا على زوجته. ربما لم يخرج صوته من حنجرته، فهو لم يسمع لها ردا. التوجس أظافر طويلة تنهش قلبه وكبده، يتسلل إلى غرفة النوم، يسمع موسيقى خافتة منبعثة منها، يسمع صوت دمه الحار يجري ويلهث في عروقه، يدفع الباب هاجما، صوت الباب المرتطم بالحائط

خلفه يقطع أنغام استغراق زوجته، فترتعش من المفاجأة وتنهض فزعة. لكنها سرعان ما تحتمي من السقوط بالسرير...

يصيِّر كل نغمة تهمة موجهة إليها، وكل نسمة من الهواء المعطر سؤالا مستريبا. ينظر إلى صورة زفافهما والبسمة العريضة المقتسمة على وجهيهما:

- أمعقول؟

يفتش تحت السرير.... يفتح أضلفة الدولاب، يخرج ملابسه وبكل ما أوتي من قوة يقذف بها نحو الحائط... يسرع إلى الصالة، يقلب ما استطاع من الكراسي... يجري إلى الحمّام والمطبخ... أين؟ كيف؟... أسئلة لا تدري زوجته كيف يوجهها أو لماذا يهرول في أرجاء الشقة ويفتش كل شيء...

وهو خارج من المطبخ يلمح شبحا في المرآة فوق حوض المياه، يجد الشبح ينظر إليه بغضب وشكٍّ، ويرسم من أنفه علامة استفهام تتلوى في قعر المرآة... يكوّر قبضته

ويقف متحفزا، يلكز الشبح المتحفز، فتندفع قبضته في المرآة وتخرج بصرخة مخضبة بالجروح. تسرع زوجته على أثر الصراخ فزعة...

22 يناير 1995

اختناق

ظلام، الهواء راكد، أرقد، أكاد أختنق، يراودني الأمل في الخروج، كثرة الجلوس أفقدتني الكثير، أتماسك، ألملم جسدي المبعثر، أحاول النهوض، تخونني قواي، أحاول وأحاول، أنهض، أتحسس طريقي إلى الباب، موصد، مغلّف بالتراب، فترة طويلة نسيتُ خلالها نفسي وكل شيء، بل لم أحس بالهواء الراكد والظلام الدامس، فهو أغلق الباب بمئات الأقفال، لا أستطيع فتحها...

أدق الباب بكل قواي، لعلّ أحدا ينقذني، أدق وأدق، ينفد صبري، أختنق، لا أستطيع الاستمرار، أتوق إلى الهواء المتحرك... والنور، أستجمع قواي، الباب لا ينفتح، ألقي بكل ثقلي عليه، يضطرب، أكرر إلقائي، ينفتح، أجدني في حجرة أخرى أكثر إظلاما، أسمع أصوات الفئران، تتناغم معها أصوات الأبرص، يساعدها فحيح الثعابين، وتلحن لها الصراصير...

أتحسس الحائط، مفتاح كهربائي مكسور، أرجع، أتحسس، شباك، أدق بعنف، أصرخ، أستغيث، أدق، يُفتح الشباك، أجد من يدق المسامير في عينيّ....

6 مايو 1993

سفور

عندما لمح البسمة تتراجع بألم من على شفتيها، أدرك أن هناك مستجدات رجعية. قبل الآن كان كل شيء يبشر بأنها ستعاند تجهيلها والمشاكل المعوقات. قالت وهى تحاول أن تتمسك بأهداب جسارة غائبة: فلنتوقف.

- ماذا جرى ؟!؟!

- فلنتوقف

قالتها مرة ثانية وهى تحاول أن تبعد عينيها مخافة أن تلتقي العيون ....

لما انصرفت لاحظ.... دمعة تسقط في الطريق أمامها ولاحظها هي تتعثر في خطوتها تراءت أمام عينيه صورة والدتها وهى تقهقه بسخرية سافرة منتشية. سار في نفس الطريق، حاول أن يتجنب الدموع المسفوكة، تجنب التعثر في خطواته، أسرع الخطى ليكون وراءها يساندها،

يحميها من التعثر ويحصنها ويحصن نفسه ضد الضحكات الساخرة عله في يوم.....

1996

رجوع

ضجيج منفجر بالمكان، خيوط صمت مكبوتة في قلب كاظم غيظه، يحتسى شيشته بدفء... واقفة في الشرفة تنظر باشمئزاز إلى تلك الخيوط التي تتصاعد في الفضاء وتسخر من كل هدوء....

طائر يهجر عشه فوق أحد السطوح، ربما مؤقتاً، ربما للأبد، الأنوار متوهجة، الطنين يفقدها بريقها...

"انتى مش واخدة بالك، انتى مش عارفة حاجة".

"نار، نار، نار، أنا قلبي قايد نار".

"ما بلاش نتكلم في الماضي".

حية تفح بشدة، ربما لتطغى على تلك الأصوات المتسلقة على جدار الليل الموتور. المعلم حنورة يحيِّى... أهل الحارة يباركون... أحسن نقطة لأحسن... ونقطة لأجدع مغني... نيابة عن أهل الصعيد المعلم أبو كرشة يحيِّى .....

- ليه يا فن بتدوش وانت نبت حنون؟

قالها أحد المارة وانصرف...

صوتها الموغل في البعد يترقرق في أذنيه... يأخذه بعيداً عن هنا ويموج به في بحار من الحاضر البعيد وبحور من المستقبل الأكثر بعداً، يناجى القمر الغائب أو المخنوق ويعاتبه على تركه لوحده يعانى ضجيج الحناجر ويواسي صراخ الآلات، ضرب مستمر، والضرب لا ينتج أرقاماً ولا مشاريع، يقتل فقط بعض الأحاسيس التي مازالت بكراً والشباب المتأخرين في السن حول حديث ما.

وليدة هي من طمي النيل. لكن الطمي يبدو أنه فقد أصالته، فأصبح يتأثر بكل ما يقال وما يُصمت عنه من ألسنة لا تستطيع إلا الثرثرة فيما لا يفيد المتثرثر عنه، إليه، أو حتى المستمع....

كلام على كلام، صمت على صمت، عجز على عجز، يتراكم الألم، تتكاثر الجروح، ويظل الصمت المكتوم هو الذي يتملك قلبه ويلقى به في دوامات من الأفكار التي لا تجلب إلا الأحزان وثقل القلب، والتناقل، وصراخ...

يداويه فقط هدوء أعصابه الذي يحاول أن يتمسك... به أحياناً لينقذه من الضياع، والتوتر، والجدليات التي لا تريد أن تكتمل أو حتى تقبل أن تتشكل في معادلة سوية أو حتى بها بعض الأمراض.

عندما أخذه الصمت إلى بحور بعيدة وعندما تغلب الضجيج بعد كل محاولاته، ترك شرفته، غرفته، وخرج.....

أسرع بعيداً عن...... ذلك الشارع في تلك الحارة الضيقة حيث الأصوات تصر على أنها عبقرية في الأداء ومرونة في التفاعل...

(ووجدتُني أنظر إليكِ في كل مكان .... وعندما فشلتُ في العثور... عليك أو على... نفسي، راودتني رغبة في التبول على كل شيء والبصق على كل الأماكن والمنشآت...

وبما أنني لم تكن لدى رغبة غير إنسانية في فعل ذلك، ولم أكن قادراً على فعل أي شيء – ربما أُفْقِدْتُ تلك القدرة منذ زمن، ربما كانت لدى القدرة ولكنني لم أكتشفها

في الوقت المناسب، ربما غضّت هي عنها النظر لأسباب خارجية، من المحتمل – مجرد احتمال – أنها كانت خارجة عن إرادتها، وأمنياتها كان عودها لم يقو بعد، ولم يقدر على مواجهة تحديات القرن الذي أوشك على الانصراف، أو حتى فقط قول كلمتها... – فإنني تمالكتُ نفسي وصمتُّ.

ذهبت إلى النيل بهدوئه المحمّل بعبق الجنوب بقدراته العجيبة وإمكاناته التي ذبلت فيّ ونحل عودها. أخذت أنظر وأحاول أن أعزف على بعض الأوتار المتبقية....

هدوء عجيب لفَّ شر..... يط الذكريات المقطو....ع وانداح بي في اللامحدود من...)

استيقظ فزعاً على صوت سرينة تصرخ وتضج. سأله رجل فيها عن هويته. لم يستطع أن يجيبه، فقط أخرج له بطاقته الشخصية الطاعنة في السن. نظر إليه باستغراب، وربما باستنكار، لكنه

(للعجب، لم يقيدني بالمصفّحة، ولدهشتي اللامصدقة لم يأمر أحدهم باقتيادي حيث أن أيديهم كانت تهرش بشدة لتتحرش، فتنفست باسترخاء، ملأت رئتي و.....)

ورجع.

1997

أحجار

يجري الشارع، وهو لا يجد مكانا له وسط الأقدام. يتحرك مسرعا في كل الاتجاهات، لكنه ثابت مكانه. صرخت دمعتها، انهمرت سيول الجفاف، جرت أنهار الفراغ، فرحت الأحجار، زغردت كثبان الرمال، هللت الأرض الخراب، بكت السهول، ولولت الأرض البكر، وصرخت الأشجار المتحركة...

يحاول أن يقوّي قدميه، لكن الأحجار تجرفهما وهي تنظر إليه بعيون ساخرة مستنفرة. قالت: "كان لينا أماني كتير"[4] ضاعت كلها في أحجار، أسفار وشوارع، "سفر الخروج" مختوم بالشمع الأحمر. الزمان حاجز بيننا وبين الأمنيات، الأمنيات متوهة في فضاء الزمن. يحبو تحت الأقدار ليصل إلى أية محطة أتوبيس، الأتوبيسات لا تقف في المحطات، تحط على رأسه الأثقال، ينوء بها، لا يعرف الألاعيب لتفاديها...

---

[4] من أغنية لليلى غفران تقول فيها "كان لينا أماني كتير ضاعت كلها في أوهام...".

عندما تستمر الأتوبيسات في السير، يحاول أن يتعرف على قواه المتبقية، يجمّعها من كل الأركان، يقذف بنفسه في عرض الشارع عسى أتوبيسا يفترسه، ينظر، يجد الأتوبيس توقف في المحطة قبله، يجري إليه، لا يجده، يجد نفسه مرتطما بباب الغرفة وزملاؤه حوله على المكاتب ينظرون إليه بإنكار، يمسح الدم المخضب بالغبار، يحاول عبثا أن يعود إلى مكتبه أو حتى يمسك كشكول التحضير الواقع على الأرض....

3 أكتوبر 1995

انسحاب

يد العازف تداعب أوتار العود وتدغدغها فتعزف على قلبك وتذيبه بسحرها الحنون. ينسجم القلب مع المداعبات ويلهو عما سواها، فيترك نفسه للموسيقى تنتقل به بين المقامات كما شاءت.

ستلحظ بطرف عينك أن هناك من يرمقونك، ربما يعجبون من الرجل الذي يتراقص الذي هو أنت، ربما يتأملون اندماجك التام، ربما...

عندما تجد عيونا كثيرة تسترق النظر، ستلتفت في حيرة ولن تدري ماذا تفعل. ستنظر أمامك وستجد طفلين ينظران إليك: أحدهما يشير إليك ويهمس في أذن صديقه ببعض الكلمات، ربما: "أترى الرجل يرقص!!" أو "انظر إلى هذا الممسوس!" أو ساعتها لن تدع تفسيراتك تختلط بأحاسيسك وستبتسم لهما، لكنهما سيبعدان أعينهما عنك ويجريان بعيدا إلى رجل وامرأة، ربما كانا أبويهما.

ستحاول أن تجلس على كرسيك صامتا جامدا كأنك جزء من أحجار القلعة الجالسة بجوارك... لكن الأنغام ستندهك بقوة ورقة لن تستطيع مقاومتها. عندئذ ستجد نفسك تسحب الكرسي وتنسحب إلى الخلف لتجلس في مكان شبه مظلم تحت شجرة في ركن و...

1998

تصفيق

عازفات الفلوت الأربع يتوسطن خشبة المسرح التي أعدت خصيصا. المسرح مرفوع قليلا لأعلى عن مستوى الأرض. لا يوجد فاصل بيننا وبين العازفات. تتخلق النغمات في تصاعد جميل يشد القلوب إلى أن يصل إلى قمة نهر النغم. اقترابنا من خشبة المسرح يخلق قدرا من الحميمية لا يستوعبه إلا جو القلعة التاريخي العطر. لا يسعك كرسيك. تهم أن تتطاير على النسمات الوديعة التي تطلقها الألحان الحنونة.

عندما تصل إلى أعلى قمة، ستسمع أحدهم بجانبك:

- يبدو أنهم يعملون لهن اختبار رُكَب قبلما يدخلون الفرقة...انظر إلى أرجلهن، شيء خرافي!!!

لن تعره انتباها، ربما تنظر إليه بتقزز وتواصل تحليقك. ستتشم النغمات تكبر وتكبر إلى أن تتزوج الجدران الرقيقة للقلعة.

وعندما تنتشي النغمات وتبدأ في الإمساك بأذنيك بقوة، ستجد عامل القلعة يصفق قبل أن تنتهي الوصلة لكي يحث العازفات على الانتهاء. تنظر إليه إحداهن، فيشير إلى ساعته. ستنظر إلى ساعتك، متبقي ربع ساعة على موعد انتهاء العرض. يلححححححححححح العامل إلى أن تحس العازفات بالخجل، فينحنين في تواضع وينصرفن حاملات آلاتهن وقدر من الكدر...

1998

بشرى الأمير

انتبهنا يوما: أنوار القصر تشتعل، أبواقه تدوي، شيء مهم لابد، علينا أن نتحرك نحوه، فالأبواق لا تدوي بهذه الطريقة إلا إذا كانت تنادينا، لابد أن الأمير وصلته شكوانا – ربما قرأها، ربما لا يعرف القراءة، فقرأها له أحد ندمائه – هرولنا...

لاشك أنه استجاب لنا، تسابقنا. يبدو أنه راجع موقفه وبدأ ينظر لنا بطريقة جديدة تليق بنا. كدنا نصطدم ببعضنا البعض.

ها نحن في ساحة القصر. الأبواق مازالت تدوي. لا تظهر أية علامات في وجوه الحراس الذين فتحوا لنا باب القصر. لا تقفز من عيونهم بشرى لنا. لا يهمُّ. فربما اعتادوا هذه النظرة اللامبالية.

ما هذا؟! ما بالهم يسيرون هنا وهناك وينتشرون في كل مكان! يهزون أجسادهم كحيات تتراقص. انتظرنا. تُرشُّ نسمات الهواء الملَ فيتسرَّب إلي قلوبنا المتلهفة. لكن قرب

البشرى وانتظارها المتمكن داخلنا يهوّن علينا ويجعلنا نتسلى بالنظر إلي زخارف القصر. رسومات تحمل علامات نهر، زخارف في عز الشباب والتقوى، رحلات صيد، صلوات جماعية، مبارزات فردية، سيوف مشهرة، جوارٍ تتراقص علي صلصلة السيوف...

أعلن الحرَّاسُ مجيء الأمير، فتطاولت آذاننا لتلتصق بشفتيه. هتفتْ أصواتٌ لا نعرفها بحياته وبشراه السارة التي "حَلَّتْ" كل المشاكل. رددت أصواتٌ الهتافاتِ وسكتت أصواتٌ. وفي تموج الهتافات المنبعثة من داخل القصر وساحته، ارتطمت باقي الأصوات بأمواج الهتاف والتهليل. من ظل صامتا اقتيد إلي حيث لا يدري أحد.

ابتسم الأمير. أعلن أنه سيخفِّفُ عنا آلاما. أومأ إلي أحد الحراس، فدخل القصر. خرجت جارية راقصة زئبقية. جسدها يغطي ملابسها التي ربما كانت في أحشائها. تسارعت اهتزازات جسدها. سكب الأمير عطورا ما شممنا مثلها من قبل. تضوعت الروائح "الذكية" من جسدها،

فتخللت أنوفنا وأفاقتنا من دهشتنا. احتدت نظراتنا وتصوبت علي الأجزاء التي لا نراها في زوجاتنا. أخذنا نتلوى مع "زفلطتها" وزوغان جسمها.

بدأ الأمير يراقصها. ذابت أجسامنا. تراقصنا مع رقصاته وانتهاءاتها. هتف من هتف. ابتسم الأمير. اقتيد الباقي. خلع الأمير ملابسه. ذاب جليد أجسامنا. طوى الرقصُ والذوبانُ ساعاتٍ الليل وضوءَ الفجر. أخذها الأمير ودخل. لم يزل الذوبان سيد أجسامنا....

في الغروب كان رجال هيئة الأمير يكسّرون أبوابنا ويقتادوننا لترْكِنا الأرض ونومنا في بيوتنا طيلة النهار...

هامش: من نزلوا الحقول، لم يقدروا على العمل، فالفئوس كانت تتراقص في أيديهم وتهوي علي أجسامهم.

12 أكتوبر 1993

زفافُ مَنْ رحلَ

عندما اقتربنا في رحلة سفرنا المفاجئ من حدود القرية، انفجر أحد إطارات السيّارة، فتوقفنا رغما عنّا لكي نبدّله. وما أن خرجنا من السيارة في ذلك الجو الشتوي حتى سمعنا أصوات زغاريد كانت تعلو فوق بيتنا.

- لا حول ولا قوة إلا بالله!

قلتُها على الفور، فلا مجال للزغاريد أصلا في هذا الجو الحزين. نظرتُ إلي أخي بجوار السيارة على ضوء العامود الكهربائي على ضفَّةِ الترعة، وكأنني أستفسر منه أو أحاول أن أبدأ حديثا يطرد من قلبي هاجسا يلحّ عليّ. فقال:

- أعوذ بالله من الشيطان الرجيم!

ثم صمتنا، كما لو كنا نتفق على تفسير الزغاريد التي أخذت تعلو وكأنها تتسلق سلّم الأفق وتتراقص في الهواء: كانت تلضم خيطا من نور يتأرجح ويتطاول ليبلغ قلب السماء.

بدا الأمرُ كما لو كان عمِّي في ذلك اليوم يُزَفُّ إلى عروسه ولم يَمُتْ كما أبلغونا. تساءلتُ:

- أهي أهوالُ العُرْسِ أم أنها ملهاةٌ ساخرةٌ؟ وإن كانت، فممن السخرية؟ مِنَّا نحن الذين ما أن بلغنا الخبر حتى قفزنا في سيارتنا دون أدنى استعداد وانطلقنا على الطريق الصحراوي!!

لكنني سرعان ما تذكرت قولا شعبيًّا يقول إن من مات ولم يتزوج يُزفُّ إلى عروس في السماء. لم أستطعْ أنْ أتحقَّقَ من ذلك القول برغم كل شيء، فلم نَصِلْ إلى بيتنا بعد، ولم نعرف إن كان عمِّي في مجرَّدِ إغماءةٍ وأفاقَ منها أم أن الزغاريد لسبب آخر. كما أن الوقت كان متأخرا في الليل ولم يكن وقتَ زغاريدَ بأي حالٍ من الأحوال.

بعد أن بدَّلْنَا الإطار، انطلقنا بأقصى سرعة، محاذرين ألا نقع في الترعة بجانب الطريق، وتركنا زجاج السيارة مفتوحا حتى نتمكَّنَ من سماع أي صوت قد يرجّح لدينا احتمالا. تهادى إلى مسامعنا صوت عبد الباسط عبد الصمد

في الهواء. كان يقرأ آيات عن النعيم وحسن الثواب في الآخرة. وعندما وصلنا، وجدنا عمَّنا في سريره وكلَّ الأيادي تواسينا. رفعنا عنه الغطاء لنلقيَ عليه نظرة وداعٍ أخيرةً، لكننا لم نجدْ سمرةَ وجهه أو الندوبَ التي كانت تملأه، بل وجدنا وجهه منيرا كأنه يبشِّرنا بحياته القادمة.

1998

رائحة

عبر النافذة الضيفة المطلة على بحر عتيق، تتطلع إلى خيوط عصافير تتماوج في الهواء. تتخيلها ترفرف وتحط على سطح بيتها لتنـزل داخله وتمرح وتسكن وتنجب وتملأ البيت حركة ونشاطاً وعصفرة.

ينهضها منظرُ العصافير من رقدتها الموغلة في الزمن، ربما للحظات وربما للأبد، وتتطلع لأول مرة إلى مياه البحر التي ابتلعت زوجها يومًا. تفكِّر في أن تعقد مع هذه المياه مصالحة، فربما أوصلتها إلى العصافير. لكنها ما أن تدبُّ بخطوتها على الرمال حتى تكشِّر الأمواجُ عن قطراتها وتفجِّر هذه القطرات منذرة في وجهها. فيطفو الخوف الأبدي على قلبها بعد أن كان خاملا...

تتراجع وتتخلى عن عزمها. لكن العصافير تعلو وتتماوج، وتشدو الأصواتُ المحملة بعبق السفر والانطلاق لحنًا شجيًّا يعيد لها الحنين ويذكِّرُها بأنها نسيتْ نفسَها طويلا...

وعندما تتقدم نحو البحر، تقذف موجةٌ بحذاء قديم. فتنظر إلى قدميها في رعب وتهرول راجعة إلى نافذتها. لكنها تستدرك عندما تدق في قلبها نبضةُ فرح تهمس لها بأن الحذاء ربما كان حذاء زوجها، فتتراجع للبحر. تقلِّب فردةَ الحذاء الباهتة وتعيد النظر فيها عشرات المرات. وعندما لا يجدي نظرُها تعرُّفًا، تشمُّها على مهل وكأنها تحاول أن تستعيد روحا أكل الملح ملامحها. تأسف عندما لا تجد فيها رائحةَ زوجها، بل تجد تراكماتِ سنين تضيف رائحة على رائحة فلا تبقي لأي منها تميُّزًا...

تضع فردة الحذاء على الشاطئ بحنو، فربما انهزمت رائحته فيها أمام ما كتم أنفاسَها من روائحَ. ثم تحمل خيبتَها في كفيها وتعود إلى نافذتها كأن الأمل لم يراودها منذ لحظات. ومن هذه النافذة ترى نفسَ الشبح للمرة التي لا تدرى رقمها يغدو ويجيء على الشاطئ. يرتدى الحذاء. يتماوج وربما يتعصفر وهو يضغط على الحذاء في زهو وانتشاء. تبصر في هذا المنظر كآبة ربما ازدادت قليلا هذه

المرة. تشم رائحةَ السمك متعفنة وأنينا واهنا قادمًا من أماكن شتى.

يتحرَّكُ إجهادُها المستمر وحزنُها العميق داخلها ويبدِّدان محاولتها لأن تنام. لكن روعةُ العصافير تخلد بها إلى الأحلام. تغمض عينيها فترى الغرفة كلها أحذيةٌ تتطاير ويضرب بعضها البعض. تفسد عليها بهجتها المتوجسة رائحةٌ عفنة تتخلل أنفها بإلحاح. في الصباح تلملم بعض حيويتها المبعثرة، ولأنها لا تستطيع أن تحمل أي شيء، فإنها تترك كل شيء وتودع المكان للأبد وهى تضع يدها على قلبها.

هامش أول : تمشى بعيداً عن الشاطئ مخافة المياه والعفن.

هامش ثانٍ : تتوغل في الصحراء خشية أن يرتديها الشبح.

1995

موطئ

سماء محمَّلة بغيم الترحال. محمولةٌ هي تحت أقدامهم. تناجى ذلك النجم العالي. تودُّ لو تدنو منه حتى تبلِّلَ شفتيها وترتوي من خلاصته. يتلوّى فأرٌ فَزِعًا من هطولِ مطر، فيصعد صخرةً ويعتصم بها. تتمايل شجرةٌ بخفَّةٍ مع رياح مداعبة. يعبث غضبٌ بخيمةٍ معتَّقةٍ بوتدٍ فالقٍ قلبَها. وعندما تسقط قطرةُ مطرٍ، تبتهل أفواهٌ، وتضجر نحالةٌ لا تحتمل المطرَ، ويقتسم المكانَ الضوءُ والظلمةُ، الرغبةُ والرهبةُ...

ها هي تلوّح بيدها، ترجو الغيوم أن تتماسك وتلملمَ أجزاءها المتساقطةَ كي تصعدَ هي إليها وتحملَها إلى مكان بعيد.

عندما تلهث من العَدْوِ وراء غيمة متأخِّرةٍ عن السِّرْبِ ويكويها صمتٌ ثقيلٌ، تتوقف مصدومةً في ذعرٍ وارتيابٍ. تطاوَلَ تغييبُها وامتد، وذاب انتظارُها تحت هدير شمس ثقيلة...

عندما تنتبه لأفكارها، تمسح أرجاء المكان بعينين مجهدتين من التقصِّي واجترار ذكريات مستقبل يستعصي على المجيء. تجلس واهنةً، لكنها تعود قلقةً وتتحرك في جميع الاتجاهات. وعندما تفشل في الكشف يترسَّبُ انكسارٌ مؤقَّتٌ في عينيها...

تُخْرِجُ بعض الوريقات من جيبها. تحاول أن تضيف ملامحَ أخرى لما ابتدأته. لكن تثاقلَ قلبها وحيرةَ عقلها يتغلَّبان على نشوة الكتابة، إذ تعاند حالتُها حروفَ قلمِها الذي أوشك على الفناء...

تدور. تستكشف. تفشل. تجلس. وعندما يعاند مركزُ الدائرةِ الاقترابَ، تقف مرتعشة وتجري في كل الأرجاء بحثاً وتنقيبًا. تسقط ورقةُ شجر خضراءُ أمامها، فينتفض قلبُها ويصرخ. تجري عكسياً مُحَاوِلَةً أن تتمسك بأقصى أركان البعد...

تجرُّها قدماها إلى حفرة مستطيلة. تسقط. تزمجر الريحُ. تتساقط الرمالُ فوقها وتُمْلِي عليها رائحةَ العطن والسكون. تفور أشياء داخلها، فتصرخ. لكن الحفرة تهزمها.

ها هي تلحُّ في الخروج، والحفرةُ تصرُّ على العناد والمكابرة. ماكرة محاولاتها، والحفرة داهية ثعلبية المخارج. تتمنى أن تصير تلك الحفرةُ بحرًا وتلك الرمالُ المتساقطة حوتاً يحملها إلى الشجرة على الشاطئ الأليف. تتذكر "فلادمير واستراجون"[5] جالسين تحت الشجرة في انتظارها، فتطرح الأمنيةَ من قلبها وتحاول أن تتصوَّر جدليةً أخرى للخلق والإبداع...

ينشيها حلولُ الظلام المفاجئُ، فالخلقُ يبدأ بعد الظلام. تتنفس بإدراكٍ علَّ نَفَسَهَا يُخْرِجُ شيئًا جديدًا أو يشترك مع نَفَسٍ آخرَ في شراكة دافئة وقلبٍ يدقُّ فيتولَّد كائنٌ يَبْعَثُهَا لذاتها ويخلّصُ آخرين. لكن الرمال التي علت حتى رأسها تطفئ نَفَسَها...

---

5 بطلا مسرحية في انتظار جودو لصمويل بيكت

مازالت عيناها قادرتين على الإبصار. يصعق رعدٌ ويزمجر برقٌ، فتظنَّ أن الأرواح الشريرة تتجرَّعُ سكراتِ الموت وتحترقُ في عنان السماء. تغطي الرمال رأسها تمامًا. تهطل أمطارٌ وتعوي أعاصيرُ. تفرُّ رمالٌ أمام السيل وتتراكم في الحفرة. تعلو المياهُ لتغطي الرمالَ. يتسيَّدُ الصمتُ المكانَ في شراسة مخلصة. مازال الفأر معتصما بالصخرة في ذهول. تجمَّعتْ بجانبه بعض الطيور في رعب وهستيرية. حاول أحد الطيور أن يفترس الفأر، فتراجع في ذعر وسقط في الماء...

من أخبار المروى عنهم

قالوا:

- نبت نباتٌ مستديم الخضرة على الحفرة.
- لم يَمُتْ الفأر، لكنه اختبأ في أحد تجاويف الصخرة ثم خرج بعد أن انجرف الماء إلى متاهة الرمال، وعاش على ذلك النبات وبعض أنواع النبات الأخرى التي بزغت في حُفَرٍ أخرى.

- سار الوتد مع المياه وثَبُتَ عند تلك الحفرة أفقيا.

- بزغ شيء هرمي الشكل به فتحات غريبة بجانب الحفرة، وبعدما فحصوه وجدوا أنه جزء من هرم ضخم غير مرئي يَضُمُّ في أحد أنحائه الحفرةَ.

- هبطتْ سفينةُ فضاء بالمكان، فاختفت الحفرة والهرم وكل النبات.

- تتعامد أشعَّةُ الشمس على تلك الحفرة في كل أوقات النهار وفي الليل يضاء المكانُ بوهج غريب مترقرق.

- مازال قلبها بالحفرة ينبض – لم يذكروا إن كان اختفى بفعل هبوط السفينة أم لا.

- كل من يجلس بالقرب من الحفرة لا يحس بمرور الزمن أو حركته.

من أخبار الراوية

عندما عرفت الراوية كل تلك النتف من الأخبار المتناقلة في وسائل الإعلام المختلفة عن الذين روت عنهم، لهم أو عليهم – منها ما تناقله الناسُ عن وسائل الإعلام، ومنها ما تناقلته وسائلُ الإعلام عن الناس – تمادتْ في الضحك وراحتْ في هستيرية نشوى.

1996

صدى قهقهات

تدب أم كايدهم على الأرض بجلبابها الأسود وحذائها الذي يرفع التراب وراءها متضجرا حزينا. يدفعها الفزع نحو وجهتها على الطريق. لابد أن الشيخ خضيرى سيشفيه. سلامة أولادها فوق كل اعتبار. لابد أن الجان سكنوا رأس دهشان. ها هو يضربهم كلهم: أبو العيال، نفيسة، كايدهم... لا أحد يسلم من يده، يريد أن يأخذ زوجة ولدها كايدهم، يقول إنها زوجته. لا يوجد أحد في القرية إلا واشتكى منه. يروح للجيران ويطردهم من غيطانهم، ويقول إنها أرضه...

تمد للشيخ خضيري طاقية من أثر دهشان، يطلب مائة جنيه. يسألها عن صاحب الطاقية ورسمه واسم أمه وأبيه وصفته وماذا يعمل وعلاقته بأقربائه وجيرانه...

يهلوس كل يوم. يمشي في الطريق، يمد يده نحو كل الغيطان. يقول لكل الماشيين إن الأرض كلها أرضه، وهو ما لا يقدر على رعايتها بمفرده، وسيوزع علي كل واحد غيطا

يرعاه... يمسك القصبة[6] ويسير هائما يقيس كل الأرض وكأنه من رجال المساحة...

تخرج المائة. لا بأس. ليست الوحيدة على كل حال. ...

هائج هذه الأيام، يكسّر كل شيء. كاد يحرق شونة التبن لولا أبو العيال والعيال بعّدوه وقيدوه في النخلة طوال اليوم...

يحرك الشيخ المسبحة في يده، يلقي البخور على النار، يتكلم بصوت خفيض، يبدو في غفلة تامة، إلا طرف عينيه... يفيق من "غفلته"، يدخل غرفة مجاورة وهو يكلم وجوها لا تظهر، يغلق الباب وراءه بإحكام.. يخرج طاويا ورقة في يده:

- ما هذا يا سيدنا؟
- الأسياد يطلبونك.
- لا يصح يا سيدنا.

[6] القصبة أداة لقياس مساحة الأرض عبارة عن جريدة نخلة يابسة ويبلغ طولها حوالي 355 سم، وقيراط الأرض مثلا تبلغ مساحته 49 قصبة.

- أأنا الذي أطلب؟!!...

ينغلق الباب على حركة هائجة بالداخل .

يركب كايدهم الحمار متجها إلى الغيط. يأمر دهشان أن يحضر المنجل ويأتي وراءه كي يحشّ البرسيم للبهائم. فيحضرها في صمت. تتقدم منه أم كايدهم، ممسكة "بالحجاب" لتعلقه في رقبته. عفريت يركب دهشان: تحمر عيناه، يتلفت حوله في عصبية وقلق، يتراءى له طيفُ أُمٍّ جمّعَ ملامحَه من كلام الناس عنها، تتقلب في قبرها فزعة، يحوم في الأفق خيال أب مات تاركا إياه في مدرسة أخرجه عمه منها:

- ألن أتزوج؟

- قلتُ لك تزوج نفيسة ولك كل شيء...

تقترب أم كايدهم. يقوّي قبضته على الشرشرة...

- نفيسة... إن لم تجد أحدا تسبُّه تسبُّ نفسها.

تلطّفه بكلمات عندما يقفز الشرر من عينيه، تطلب منه أن يأخذ الحجاب...

- نفيسة... كلما أراها أمسك بطني...

تمسك الحجاب وتقرّبه له...

- بنتك ليست ليّ يا عم.

- ما لك عندي شيء، لن يسمع كلامك أحد...

تلبسه الحجاب، يقوّي قبضته على الشرشرة، يرفعها، يهوي بها على صدرها، ينتزعها وبكل ما أوتي من تذكُّرٍ يهوي بها. قبل أن يهبّ عمه من الداخل تفر منها الحياة.... يخضّب يديه بدم عمه. يلعق الدم. يلقي المنجل. يفر وصدى قهقهاته يتردد في عنان السماء....

1994

ندّاهة

مستلقيا على ظهره فوق كومة الزلط أمام بيته، يتأمل مصباح العامود الكهربائي فوقه، يتكاثر الهاموش حول المصباح. تتطاير فراشة حول رأسه، يهشها بيده، تبتعد، تصعد للمصباح، تتطاير حوله، تهاجم الهاموش، تريد أن تتوحد مع المصباح، تدور، يسحرها الضوء، تندفع فجأة، تسقط قتيلة، يسقط قلبه بين رجليه، دقاته يسمعها عالية، تكاد تطغى على نباح الكلاب ونعيق الضفادع حوله...

ما الذي حدث؟ شيء خطير لأحد أقربائي بالتأكيد!! إنني هكذا، يدق قلبي عاليا أثناء المصائب...

ينهض فزعا، يدخل البيت...

أمي وإخوتي وأخواتي الصغار تحكي لهم، هادئون:

- أين أبي؟
- تعرف أنه مازال في الغيط يروي الزرع!! كان ينتظرك أن تذهب لتساعده.

ينظر إليها بطرف عينيه وكأنها قالت كلاما لا يغتفر، ويخرج ليضع البردعة على الحمار، ويعدو...

لابد أن أبي حدثت له مصيبة، نعم إنه أبي، ذلك الكلب لابد أنه قتله، يتحرش به دائما، أحضر له أبي الشيخ عبد الحميد جمعة ليقيس الأرض ويبين لكل واحد حدوده، أشهده أبي على ما يطمع فيه جارنا...

حفرة في الطريق، يجفل الحمار، لا يريد أن يخطوها، يضربه، يجفل أكثر، تهتز البردعة، يقع، يسير بعيدا عن الحفرة، يركب...

يريد أن يوسِّع أرضه على حسابنا، لابد أنه جادل أبي، وأبي لا يقبل المداورة ولابد أنه ردّه مباشرة...

كلب ينبح، يسرع الحمار...

انطلق ثورا هائجا، لابد أنه قتل أبي، آه يا أبي، كم أفتقدك! ألا ترى بؤسي وعجزي بدونك؟ كنتَ أصلا، وما أنا سوى فرع صغير لا أساوي شيئا بدون جذرك!...

يميل الحمار برأسه، يلتهم بعض الحشائش من الجانب الأيمن من الطريق...

لابد أن أستردَّكَ، أزرع سيرتك في كل الفصول، وأبثّ صوتك في كل الأصوات علّها تتذكر حكمتك. ومن لا يسمع صوتك فليتحمل ذنب نفسه!

يزيد ضرب الحمار، فيكبو ويسقط على الأرض، يحاول عبثا أن ينهضه فيتركه ويجري، ينهض الحمار ويفر راجعا إلى البيت...

عليّ أن أتمسك بصوتك أكثر! لن أستسلم لكل تلك الأصوات التي تطنّ في أذني وتجعلني أحس بأني غريب ولا امتداد لصوتك، صوتك هو الحلّ. ما هذا الماء الذي يهاجم قدميّ؟! هل وصل بالجار اللعين الفجور إلى هذا الحد؟ يسقي زرعنا بماء ماكينته؟! حسبي الله ونعم الوكيل نور يشع من بعيد... نور في غيطنا، أيكون ذلك الرجل اللعين قد حرق أبي بعدما قتله وأخذ يستدفئ على النار!!!!

- أجئت يا مانع؟

يفزع، يتراجع بسرعة ندّاهة

- من أنت؟

- ماذا جرى لك يا ولدي، أنا أبوك!!!

- لا... أنت لست أبي.

يصرخ بأعلى صوته، ويسقط.

19 فبراير 1994

عن المؤلف

ولد جمال محمد عبد الرؤوف محمد الجزيري في 2 أغسطس 1973 بجهينة، محافظة سوهاج، مصر. كاتب قصة وشاعر وروائي ومترجم وناقد ودكتور جامعي. تخرج في قسم اللغة الإنجليزية بكلية الآداب بسوهاج 1995. حصل على الماجستير من قسم اللغة الإنجليزية بآداب القاهرة 1998عن رسالة بعنوان "تحولات المنظور في شعر روى فولر1936 – 1961"، ثم على الدكتوراه من قسم اللغة الإنجليزية بآداب عين شمس عام 2002 عن رسالة بعنوان "جوانب السرد في شعر روجر ماكجوف 1967 – 1987". يعمل منذ عام 1999 بقسم اللغة الإنجليزية بكلية التربية بالسويس، جامعة السويس بمصر وانتقل بعدها ليعمل بكلية الآداب والعلوم الإنسانية في نفس الجامعة، ويعمل حاليا بقسم اللغات والترجمة بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة طيبة بالمدينة المنورة. وقام في يناير 2014 بتأسيس مجموعة سنا الومضة على الفيسبوك بالاشتراك مع الأستاذ عصام الشريف (مصر) والأستاذ عباس طمبل (السودان)، وهي مجموعة تعني بشئون القصة الومضة نظريا وتطبيقيا ونقدا وإبداعا. كما قام في شهر مايو 2014 بتأسيس دار حمارتك العرجا للنشر الإلكتروني.

الاسم بالكامل: جمال محمد عبد الرؤوف محمد

اسم الشهرة والنشر: جمال الجزيري

الجنسية: مصري

فهرس